تَـفَـانَـى الـرِّجَـالُ عَـلَـى حُـبِّـهَـا
وَمَـا يَـحْـصُـلُـونَ عَـلَـى طَـائِـلِ(١)

## أعلى الممالك

**قال عند مسيره لنصرة أخيه ناصر الدولة لما قصده معز الدولة بن الحسين الديلمي إلى الموصل، سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٨م):**

[البسيط]

أَعْـلَـى الـمَـمَـالِـكِ مَـا يُـبْـنَـى عَـلَـى الْأَسَـلِ
وَالـطَّـعْـنُ عِـنْـدَ مُـحِـبِّـيـهِـنَّ كَـالْـقُـبَـلِ(٢)
وَمَـا تَـقِـرُّ سُـيُـوفٌ فِـي مَـمَـالِـكِـهَـا
حَـتَّـى تُـقَـلْـقَـلَ دَهْـراً قَـبْـلُ فِـي الْـقُـلَـلِ(٣)
مِـثْـلُ الْأَمِـيـرِ بَـغَـى أَمْـراً فَـقَـرَّبَـهُ
طُـولُ الـرِّمَـاحِ وَأَيْـدِي الْـخَـيْـلِ وَالْإِبِـلِ(٤)

---

= الدنيا غادرة بأهلها لا يدوم لها ودّ كمومس لا تخلص لمخلوق، تتلوّن بألوان شتّى، فمكرها أشدّ من شبكة صياد، فلا يُفلت من شركها من سكن إليها واطمأنّ.

(١) الطائل: ما يستطيع المرء تحقيقه. إنها طبيعة البشر لتعمر الدنيا، فكلّهم يجهدون في سبيل استرضائها، فحبّها ملك عليهم قلوبهم وعقولهم، ويتفانى الخلق فيها، وتكون النتيجة الأليمة حفنة تراب تُرضي غرورهم، فلا يحصلون على طائل، فهم يرحلون تاركين كلّ شيء ليبقى طعماً لغيرهم، وهكذا تمرّ الحياة.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٩. الأسل، الواحدة أسلة: الرماح. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع ملحميّ يتوافق مع موضوع المدح. لا تُشاد الممالك إلّا بالقوّة والقدرة، وترتفع أركانها بالرماح، لذا فعلى من يتصدّى لعمل كهذا أن يتعرّض للطعن والمجاهدة، إنها قبل يلذّ طعمها لمن يبغي تحقيقها.

(٣) تقلقل: تتحرك بعنف. القلل، الواحدة قلّة: أعلى الرأس. يذكر الشاعر حال استقرار الممالك؛ ينتج استقرارها بالدفاع عنها بالسيوف تقطع دابر الفتن وتقضي على الأعداء. وسبب ذلك أن الديلميّ قد انصرف عن الموصل لما وجد أن سيف الدولة أراد منازلته، فرحل بسلام دون إراقة الدماء.

(٤) بغى: أراد وطلب. يُخاطب الشاعر الأمير أن ما يطلبه يُحقّقه بإرادته الصلبة وعزيمته القوية، وما يجعله سريع التحقيق السلاح من رماح وخيل وإبل وجند.

وَعَـزْمَـةٌ بَـعَـثَـتْـهَـا هِـمَّـةٌ زُحَـلٌ
مِـنْ تَـحْـتِـهَـا بِـمَـكَـانِ الـتُّـرْبِ مِـنْ زُحَـلِ[١]
عَـلَـى الْـفُـرَاتِ أَعَـاصِـيـرٌ وَفِـي حَـلَـبٍ
تَـوَحُّـشٌ لِـمُـلَـقَّـى الـنَّـصْـرِ مُـقْـتَـبَـلِ[٢]
تَـتْـلُـو أَسِـنَّـتُـهُ الْـكُـتْـبَ الَّـتِـي نَـفَـذَتْ
وَيَـجْـعَـلُ الْـخَـيْـلَ أَبْـدَالاً مِـنَ الـرُّسُـلِ[٣]
يَـلْـقَـى الْـمُـلُـوكَ فَـلَا يَـلْـقَـى سِـوَى جَـزَرٍ
ومَـا أَعَـدُّوا فَـلَا يَـلْـقَـى سِـوَى نَـفَـلِ[٤]
صَـانَ الْـخَـلِـيـفَـةُ بِـالأَبْـطَـالِ مُـهْـجَـتَـهُ
صِـيَـانَـةَ الـذِّكَـرِ الْـهِـنْـدِيِّ بِـالْـخِـلَـلِ[٥]

(١) ورد البيت في: الخصائص، لابن جني ٢: ١٧١. يُردف الشاعر معقباً حديثه أن تحقيق ذلك مبعثه همّة عالية تفوق كلّ احتمال، حتى تصل إلى المستحيل فيجعله قابل الوقوع، لقد تخطّت تلك الهمة زحل ذلك النجم الذي يتربّع عرش السماء؛ إنها في أسمى مكان.

(٢) الأعاصير، الواحد إعصار: ريح عنيفة تنتقل بشكل لولبيّ يتصاعد في السماء، فتدمّر كلّ ما يُواجهها. التوحّش: الشعور بالوحشة. ثَمّة نُذُر بحرب تبدو طلائعها على نهر الفرات، حيث يعسكر ناصر الدولة، وفي حلب شوق واشتياق لمرأى سيف الدولة، فقد أوحشت منه حلب عاصمته.

(٣) تتلو: تتبع. أسنّته: رماحه. نفذت: بلغت. يمدح الشاعر ممدوحه بشجاعة عظيمة لذلك فإنه يُرسل كتبه ليُنذر من أراد إنذاره، فإذا فعلت الكتب فعلها، وارتدع المعتدون، وإن لم يكن ذلك كان الجيش بسلاحه، رماحه وسيوفه وعلى رأسه الأمير رحالة القوّة، فكان ذلك خير الكتب.

(٤) الجزر: الذبح طعام السباع. النفل: الغنيمة. يتحدّث الشاعر عن علاقة سيف الدولة بالملوك المعادين له، فلقاؤه لهم يحمل لهم موتاً فهو يتركهم جزر السباع ينهشون لحومهم، وما معهم من عتاد وأموال يتركها سلباً لجنده.

(٥) الذكر الهندي: السيف المصنوع في الهند. الخلل: أغشية الأغماد، يذكر الشاعر شدّة اهتمامه بسيف الدولة؛ فقد عرف الخليفة بالأمير سيفاً لا بدّ من صيانته والمحافظة عليه، فأوفد إليه الخيرة من الجند المتمرّسين بفنون القتال يحفظونه ويصونونه ويُساعدونه في حروبه لحماية الخلافة من الانهيار.

الْـفَـاعِـلُ الْـفِـعْـلَ لَـمْ يُـفْـعَـلْ لِـشِـدَّتِـهِ
وَالْـقَـائِـلُ الْـقَـوْلَ لَـمْ يُـتْـرَكْ وَلَـمْ يُـقَـلِ (١)
وَالْـبَـاعِـثُ الْـجَـيْـشَ قَـدْ غَـالَـتْ عَـجَـاجَـتُـهُ
ضَـوْءَ الـنَّـهَـارِ فَـصَـارَ الـظُّـهْـرُ كَـالـطَّـفَـلِ (٢)
أَلْـجَـوُّ أَضْـيَـقُ مَـا لاقَـاهُ سَـاطِـعُـهَـا
وَمُـقْـلَـةُ الـشَّـمْـسِ فِـيـهِ أَحْـيَـرُ الْـمُـقَـلِ (٣)
يَـنَـالُ أَبْـعَـدَ مِـنْـهَـا وَهْـيَ نَـاظِـرَةٌ
فَـمَـا تُـقَـابِـلُـهُ إِلَّا عَـلَـى وَجَـلِ (٤)
قَـدْ عَـرَّضَ الـسَّـيْـفَ دُونَ الـنَّـازِلَاتِ بِـهِ
وَظَـاهَـرَ الْـحَـزْمَ بَـيْـنَ الـنَّـفْـسِ وَالْـغِـيَـلِ (٥)

---

(١) يمدح الشاعر سيف الدولة بمزايا عديدة؛ منها أن فعله لا تُشبهه أعمال غيره من الأمير، ممَّا يُميّزه عنهم بأعماله العظيمة المبتكرة، كما أنه فصيح اللسان ينطق بالحكمة، فمنه يستقي الفصحاء فصحتهم، ومنه يتعلّم الخطباء بلاغتهم.

(٢) و (٣) غال: أهلك، العجاجة: الغبار. الطفل: الأصيل عند الغروب. ينوّه الشاعر بقوّة الأمير العسكرية، فجيشه كثير العدد والعُدد، وإذا أرسله في بعث ملأ الأرض، فإذا بالغبار يتصاعد في كبد السماء، فإذا بشمس الظهيرة تغيب، فيبدو النهار على وشك الغروب مصبوغاً بصفرة الموت الآذن بالأفول، وقد ضاقت الأنفاس؛ شمس حارقة ساطعة، فعينها حائرة بين ليل ونهار.

(٤) الوجل: الخوف، ومن مغالاة الشاعر أن الشمس خائفة يُرعبها جيشه العظيم الذي غطّ الأرض، فإذا بالغبار يتصاعد، ممَّا أثار لديها خوفاً من أن يقصدها الأمير بأذًى لبعد همته، فإذا أراد شيئاً كان في حال إرادته.

(٥) عرضه: جعله معترضاً. النازلات: الويلات. ظاهر: لبس ثوباً فوق آخر. الغيل، الواحدة غيلة: القتل غدراً. يمدح الشاعر ممدوحه بالحرص الشديد والحزم، فقد استعان بسيفه لحسم كل المصائب والويلات التي تعترضه في حياته فلا تنزل بساحته، ممَّا يجعله في حماية من الوقوع في الهلاك، وقد لبس الحزم فوق الدرع التي تحميه من مفاجآت الغدر؛ إنه أسلوب ناجح ناجع في المحافظة على الحياة لدى السلاطين.

ووَكَّـلَ الـظَّـنَّ بِـالأسْـرَارِ فـانْـكَـشَـفَـتْ
لَـهُ ضَـمَـائِـرُ أهْـلِ الـسَّـهْـلِ وَالْـجَـبَـلِ (١)
هُـوَ الـشُّـجَـاعُ يَـعُـدُّ الـبُـخْـلَ مِـنْ جُـبُـنٍ
وَهْـوَ الْـجَـوَادُ يَـعُـدُّ الْـجُـبْـنَ مِـنْ بَـخَـلِ (٢)
يَـعُـودُ مِـنْ كُـلِّ فَـتْـحٍ غَـيْـرَ مُـفْـتَـخِـرٍ
وَقَـدْ أَغَـذَّ إلَـيْـهِ غَـيْـرَ مُـحْـتَـفِـلِ (٣)
وَلَا يُـجِـيـرُ عَـلَـيْـهِ الـدَّهْـرُ بُـغْـيَـتَـهُ
وَلَا تُـحَـصِّـنُ دِرْعٌ مُـهْـجَـةَ الْـبَـطَـلِ (٤)
إذَا خَـلَـعْـتُ عَـلَـى عِـرْضٍ لَـهُ حُـلَـلاً
وَجَـدْتُـهَـا مِـنْـهُ فِـي أَبْـهـى مِـنَ الْـحُـلَـلِ (٥)

(١) يمدح الشاعر ممدوحه بسوء الظنّ بالناس، فهو يُمارس حرصاً شديداً، وهو ذو فراسة ومعرفة بأحوال حاشيته وملوك عصره، يعرف ما يُضمرون له من حبّ أو كراهة.

(٢) يعدّد الشاعر من مزايا لممدوحه أنه شجاع يسخو في الحرب بنفسه لأنه يعتبر الجبن بخلاً، فالمرء لا بدّ ميّت، ولكنه يموت مرّة واحدة فقط، والجبان يموت في كلّ يوم مئة مرّة. وأنه جواد كريم والكرم محبب إلى النفوس المفطورة على حبّ الخير، والبخل جبن يدفع البخيل إلى الإمساك مخافة الفقر الذي يتحسّب له في كلّ وقت.

(٣) أغذّ في سيره: أسرع. احتفل في الأمر: اهتمّ به. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه كثير الفتوحات، يُسرع إلى الانتصارات، ويعود منها لا يفتخر بانتصاراته الحربية المتتالية، ولا يهتم بهذا الأمر لأنه اعتاد النصر، فلا يُفاجأ به ولا يستغربه، ومن اعتاد على شيء أصبح عادياً بالنسبة إليه.

(٤) أجار عليه: منعه من بُغيته. يحصّن: يحمي. مهجة: روح. ينوّه الشاعر بأن حظّ ممدوحه مؤاتٍ يستجيب لإرادته، فإذا أراد شيئاً توفّرت له أسباب نجاحه فالدهر إلى جانبه لتحقيق ما أراد، وإذا طلب أحداً من عدوه فلا يحول مانع دون طلبته، فلا يعصمه مخلوق من الموت إن أراد موته ولو تدرّع بدرع يحميه أو حصن يلجأ إليه، فلا بدّ من هلاكه.

(٥) يروى «جعلت» بدلاً من «خلعت». رغم اعتزاز الشاعر بمدحه، فإن مدحه لسيف الدولة يجعل شعره في أبهى صوره لأنه يستمدّ منه بهاءه ورونقه. ولو فعل ذلك مع غيره لكان شعره يُزيّن من مدحه لأنه فوق من مدح.

بِــذِي الْــغَــبَــاوَةِ مِــنْ إِنْــشَــادِهَــا ضَــرَرٌ
كَــمَــا تُــضِــرُّ رِيَــاحُ الْــوَرْدِ بِــالْــجُــعَــلِ (١)
لَــقَــدْ رَأَتْ كُــلُّ عَــيْــنٍ مِــنْــكَ مَــالِــئَــهَــا
وَجَــرَّدَتْ خَــيْــرَ سَــيْــفٍ خِــيــرَةُ الــدُّوَلِ (٢)
فَــمَــا تُــكَــشِّــفُــكَ الْأَعْــدَاءُ مِــنْ مَــلَــلٍ
مِــنَ الْــحُــرُوبِ وَلَا الْآرَاءُ عَــنْ زَلَــلِ (٣)
وَكَــمْ رِجَــالٍ بِــلَا أَرْضٍ لِــكَــثْــرَتِــهِــمْ
تَــرَكْــتَ جَــمْــعَــهُــمْ أَرْضــاً بِــلَا رَجُــلِ (٤)
مَــا زَالَ طِــرْفُــكَ يَــجْــرِي فِــي دِمَــائِــهِــمِ
حَــتَّــى مَــشَــى بِــكَ مَــشْــيَ الــشَّــارِبِ الــثَّــمِــلِ (٥)

---

(١) يفخر الشاعر بموهبته الشعرية، يرى نفسه فوق غيره من الشعراء، وهذا حقّ، فمن الغباء أن يُنشد غيره شعره لأنه سيتكشف له تقصيره، ممَّا يُثير فيه حسداً وغيرة تُلحق به ضرراً عظيماً، وتكون النتيجة عليه وبالاً، فيعمل على الكيد للمتنبي بشتّى الصور.

(٢) يروى «جرّبت» بدلاً من «جرّدت». يمدح الشاعر الأمير بأنه رجل بمعنى الكلمة، يُثير في عيون الناس إعجاباً ومهابة واحتراماً، وهو فضلاً عن ذلك خير سيف يعمل على حماية الدولة، إنها خير الدول في عصرها.

(٣) كشفه عن شيء: أجبره على إظهاره. يُنوّه الشاعر بشدّة حبّ الأمير خوض المعارك، رغم كثرتها، فإنه لم يملّ ذلك، فالأمر بالنسبة إليه عادة لا يتخلّى عنها مهما كانت الظروف. كما أنه يمتاز بآرائه الصائبة فلا يُعرف عنه زلل أو خطأ لأن ذلك عن معرفة بأسرار الوجود ومعرفة أحوال البشر.

(٤) يمدح الشاعر ممدوحه بقوّة بطش؛ جيوش كثيرة قد جمعت للقضاء عليه، ملأت الأرض بعددها، فإذا بهم طعم سيفه فأفناهم، وخلت الأرض منهم، فبقيت تنعاهم، ولا رجل عليها يحميها من غضبه.

(٥) الطرف: الجواد الكريم. الثامل: السكران. يُقاتل الأمير وهو يمتطي طِرفاً جميلاً كريم الأصل يصول على جماجم الأعداء ويغوص في دمائهم، ومن شدّة فرحه واعتزازه بفارسه فإنه يمشي مشية الاعتزاز بفارسه كأنه ثمل من شدّة ما شرب من الخمرة وانتشى.

يَـا مَـنْ يَـسِـيـرُ وَحُـكْـمُ الـنَّـاظِـرَيْـنِ لَـهُ
فِي مَا يَرَاهُ وَحُكْمُ الْقَلْبِ فِي الْجِذَلِ[١]
إِنَّ الـسَّـعَـادَةَ فِـي مـا أَنْـتَ فَـاعِـلُـهُ
وُفِّـقْـتَ مُـرْتَـحِـلاً أَوْ غَـيْـرَ مُـرْتَـحِـلِ[٢]
أَجْرِ الْجِيَادَ عَلَى مَا كُنْتَ مُجْرِيهَا
وَخُذْ بِنَفْسِكَ فِي أَخْلَاقِكَ الْأُوَلِ[٣]
يَـنْـظُـرْنَ مِـنْ مُـقَـلٍ أَدْمَـى أَحِـجَّـتَـهَـا
قَـرْعُ الْـفَـوَارِسِ بِـالْـعَـسَّـالَـةِ الـذُّبُـلِ[٤]
فَـلَا هَـجَـمْـتَ بِـهَـا إِلَّا عَـلَـى ظَـفَـرٍ
وَلَا وَصَـلْـتَ بِـهَـا إِلَّا عَـلَـى أَمَـلِ[٥]

---

(١) الناظران: العينان. الجذل: السرور. يصف الشاعر ممدوحه برهافة الذوق الراقي، وذلك من علامات التحضّر العالي في عالم المدنية، فإذا راق لعينيه شيء عمل على الحصول عليه بشتّى الوسائل ولا يحول دونه حائل، أو يقف في وجهه مانع، فضلاً عن دواعي المسرّة التي يستجيب لها قلبه ممَّا ينفي عنه التزمّت البغيض.

(٢) و (٣) يدعو الشاعر لممدوحه بالتوفيق الدائم في سائر أعماله، سواء أكان في رحلات القتال أم لم يترك حلب موطنه، ودواعي التوفيق تستوجب الاستمرار على ما اعتاد عليه الأمير، لذا يدعوه الشاعر إلى عدم التخلّي عن عادته محاربة الأعداء في كلّ وقت ومكان.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٤٨. الأحِجَّة، الواحد حجاج: عظم فوق العين. العسالة: الرماح اللينة. الذبل، الواحد ذبل: اليابس. يتحدّث الشاعر عن خيول الأمير، إنها تنظر بعيون قد أدمى حجاجها قرع الفوارس برماحهم مقادمها، ففرسانها لا يفرّون من المعركة بل إنهم يُواجهون أعداءهم، ولذا تدمى عيونها.

(٥) يخاطب الشاعر داعياً له بدوام الخير بأن تلك الخيول في صولتها يكون النصر والظفر، إنها عونه على تحقيق كلّ خير، فيها يُحقّق آماله وأحلامه.